مقالات

تطور محددات العيب في المجتمع الفلسطيني عبر نصف قرن

الدكتور
عزام أبو الحمام

د. عزام أبو الحمام
أستاذ مساعد في علوم الإعلام والاتصال
عمان- الأردن
Azzam-mhd@hotmail.com

Ibn Rushd

تطور محددات العيب في المجتمع الفلسطيني عبر نصف قرن

The development of determinants of shame in Palestinian society over half a century

ملخص

سعت الدراسة إلى التعرف على مفهوم العيب (المذموم وغير المرغوب)، وبحثت في محدداته ومصادره، واستندت الدراسة لمفهوم الثقافة كإطار عام تندرج فيه العناصر المكونة الأساسية من القيم والأخلاق، والقانون والعادات والتقاليد والدين، بينما تناول المحور الثاني مفهوم العيب وعلاقته بالثقافات الفرعية والعقاب الاجتماعي، وتضمن ذلك تعريفا لمفهوم العقاب الاجتماعي، ومستويات العقوبات وأنواعها والسلوكيات التي تستحقها.

تقوم الدراسة على المنهج االتحليلي، بالاستناد إلى الملاحظة المشاركة، والأدبيات السابقة، وحددت فترة الدراسة بنصف قرن ونيف من الزمن، أي منذ بداية سبعينيات القرن الماضي وحتى يومنا هذا.

كلمات مفتاحية: العيب، الثقافة، مجتمع فلسطيني.

Abstract

This study sought to identify the concept of shame (reprehensible and undesirable), and investigated its determinants and sources. In its first axis, the study was based on the concept of culture as a general framework in which the basic components of values, morals, law, customs and traditions and religion are included, While the second axis dealt with the concept of shame and its relationship to subcultures and social punishment, this included a definition of the concept of social punishment, the levels and types of punishments, and the behaviors that deserve them.

Keywords: shame, culture, Palestinian society.

مقدمة

تشير نتائج البحث في مسألة العيب والتعييب أن الموضوع لم يستحوذ على قدر كاف من الاهتمام البحثي المنهجي، ورغم أن الموضوع مطروق في بحوث علم الاجتماع والانثروبولوجي في سياق بحوث القيم والعادات والتقاليد، إلا أنه لم يرتقي إلى البحث فيه كموضوع مستقل، ما يعني أنه ما يزال بحاجة إلى جهود بحثية تأصيلية.

وحين إجراء أي مسح في البحوث التي تناولت العيب، سيجد الباحث ان النتائج تكاد تنحصر فيما بات يعرف في الأدبيات ب "ثقافة العيب"، وترتبط تلك المسألة بمسألة مخصوصة جدا تتمحور حول الأعمال الحرفية وأعمال الخدمات، وهو ما يشير إلى عزوف فئات واسعة من الشباب عن تلك الأعمال، ما يزيد في نسب البطالة من ناحية، وما يؤدي إلى الاعتماد على العمالة الأجنبية، بما في ذلك من تبعات اقتصادية واجتماعية وثقافية على المجتمع المضيف لتلك العمالة.

أما ونحن بصدد جانب آخر من مسألة العيب كقيمة ومعيار أو مقياس تصنيفي لمجمل السلوكيات والأفعال الاجتماعية، فهذا مجال أوسع من ربطه بالعمل أو البطالة، إذ يستوجب البحث في مسألة العيب العودة إلى المنظومة القيمية للمجتمع، وإذ ذاك نكتشف أننا بحاجة إلى رؤيا أكثر اتساعا لأن مفاعيل أو عناصر ثقافية أخرى تسهم في بناء معايير العيب ودرجاته وعقوباته، ما يعني أنه لا بد من البحث في الثقافة كإطار عام قبل الولوج إلى مسألة القيم ومسألة العيب والتعييب في السلوك الاجتماعي.

أما في أدبيات البحوث باللغة الإنجليزية، فإن مفهوم العيب يصبح أكثر التباسا، لأن ترجمته الإنجليزية Sham أقرب إلى مفهوم العار أو الخجل، والعار والخجل هو في الحقيقة شعور يرتبط بحالة نفسية ذهنية تتلبس الفرد أو الجماعة، لهذا نجد أن هذه المفاهيم في الأدبيات الأنجلوسكسونية تبحث في نطاق علم النفس السلوكي والإرشاد النفسي، بينما ينتمي مفهوم العيب في الثقافة العربية أكثر إلى مقياس قيمي اجتماعي يصنف الأفعال والأقوال إلى حسن وسيء، وبذلك فهو ينتمي إلى مجال علوم الاجتماع والاجتماع الثقافي خصوصا.

تحاول هذه الدراسة الاستعانة بمنهجية التحليل الثقافي للإسهام في تأصيل معايير العيب والطيب في ثقافة المجتمع الفلسطيني، وهو ما استدعى تناول العناصر الأساسية في الثقافة بمفهومها الواسع. والأمل أن تسهم هذه الدراسة المتواضعة في تعزيز مسار البحث في مجال القيم ومسألة العيب والطيب في المجتمعات العربية عموما، والمجتمع الفلسطيني خصوصا.

المحور الأول: المفاهيم الكبرى لمفاهيم العيب والطيب (المذموم والمحمود) ومحدداتها ومصادرها

١. مفهوم الثقافة:

تتقاطع عدد من الحقول البحثية في دراسة مفهوم العيب وفي مقدمتها علم الاجتماع وعلم الإنسان (الانثروبولوجي)، والأنثروبولوجيا الثقافية، وعلم النفس وبحوث الاتصال والإعلام وغير ذلك من الحقول البحثية، لكن معظم هذه الحقول ينطلق من مفهوم الثقافة بمفهومها العام الواسع، فإن رغبنا بدراسة مفاهيم العيب والطيب، السيء والجيد، المحمود والمذموم، فيجب علينا التعرف أولا على ثقافة المجتمع بما في هذا الإطار من اتساع يتضمن القيم والعادات والتقاليد والأعراف إضافة إلى الدين كمؤثر رئيس في البناء الثقافي.

يعرف العيب في معظم المجتمعات بأنه كل قول أو فعل يراه المجتمع سيئا ومعيبا في مرحلة زمنية محددة، والعيب أيضا هو ما يخالف أخلاق المجتمع وقيمه وتقاليده المتوارثة، وبذلك، فإن العيب يرتبط بمقياس أو سلم معياري متوارث ومتوافق عليه اجتماعيا صراحة أو ضمنا.

إذن، فإن مقياس العيب ينطلق مما تحدده ثقافة المجتمع، والتأثير المباشر ينطلق من منظومة القيم، ويتداخل مع العادات والتقاليد والأعراف والأخلاق، لهذا كان لا بد من الانطلاق من تعريف مفهوم الثقافة بداية، وننطلق مما قدمه عالم الأنثروبولوجيا الاجتماعية إدوارد تايلور (١٩١٧-١٨٣٢) لأن هذا التعريف ما يزال راسخا منذ ذلك الوقت، وظل صالحا للارتكاز عليه في هذا المجال، ويحظى مفهوم الثقافة، منظورا إليه في معناه الممتد، والذي يحيل إلى أنماط الحياة والفكر (كما قدمه تايلور) بقبول واسع، على الرغم من ذلك لا يسلم أحيانا من بعض الالتباسات، ومجادلات حامية [١]

فالثقافة هي: *" ذلك الكل المركب من المعارف والمعتقدات والفنون والأخلاق والقانون والآداب والأعراف والعادات وغيرها، يكتسبها الفرد باعتباره أحد أفراد المجتمع*[٢].

يبدو مفهوم الثقافة الذي قدمه تايلور واسعا وشاملا، وسنلاحظ أن التعريف اشتمل على أربعة مصادر أو عناصر ذات صلة وثيقة بالسلوك الإنساني ومعاييره ومحدداته، الأول **الأخلاق، أي البعد القيمي، ثم القانون، ثم عنصر العادات،** الذي نراه مشتملا

للأعراف والتقاليد ومتداخلا معها، بينما يمكن ملاحظة أن تعريف تايلور للثقافة لم يشتمل على الدين بشكل مباشر، لكن الدين في حقيقة الأمر سيتمثل في الأخلاق والقانون، ولذلك وجب مناقشة هذا البعد وتحديد صلته بالمعايير المقبولة والموجهة لسلوك الأفراد في المجتمع.

على أنه لا يجوز النظر إلى ثقافة شعب معين باعتبارها بناء ثابتا عبر العصور، ولعل مثل تلك الثقافة هي ما يميز المجتمعات المعزولة في الغابات قبل وصول بعض عناصر الثقافة العالمية الحديثة إليها، لذلك، لا بد من التعامل مع عناصر الثقافة باعتبارها عناصر متطورة متغيرة، مع أن السمات الرئيسة لها قد تعيش طويلا عبر القرون، من هنا يشدد بعض العلماء على البعد التاريخي والاجتماعي للثقافة، إذ يؤكد دنيس كوش أن الثقافة معطى موروثا يتناقل جيلا إثر جيل، فذاك لأنها إنتاج تاريخي، أي بناء ينخرط في التاريخ، وهو ما يؤدي إلى تحليل الوضعية الاجتماعية التاريخية التي تنتج النسق الثقافي بما هو عليه[٣]. وسيسعى هذا المقال للإشارة إلى بعض السمات المتغيرة في معايير العيب موضوع الدراسة الرئيس.

أما مفهوم القيم Values أو المنظومة القيمية التي تعكس التعقيد والتداخل في قيم المجتمع، فهو من المفاهيم التي لم تنل حتى الآن تعريفا محددا جامعا، غير أن ثمة اتفاقا على أن القيم تعد مصدرا موجها للسلوك، وهي تتشكل من التنشئة الاجتماعية ومن الفطرة السليمة، وتعرف القيم تعريفات عدة منها: مثل عليا في نظر المجتمع والفرد، وهي غالبا ذات ارتباط بالفضائل التي من خلالها يتحدد الخير من الشر في المجتمع، أو الحسن والقبيح، أو المرغوب فيه والمرغوب عنه [٤] من وجهة نظر إسلامية "القيمة ما يسمو ويوفر معنى للإنسان في حياته الروحية والمادية، وينبثق المعنى من القيم التي تتأتى من المعتقد. وأن هناك ترابطا بين القيمة كمعنى وممارستها في الواقع المعايش، فالقيمة تتجسد في الفعل، وبدونه تبقى تصورا مرغوبا فيه أو فكرة كامنة فحسب، وقد اقترن الإيمان بالعمل اقترانا وثيقا دلت عليه العديد من الآيات القرآنية [٥]. بينما تعرف

القيمة من وجهة نظر غربية وحسب قاموس كامبردج بأنها معتقدات الناس، خاصة فيما يتعلق بما هو صواب وما هو خطأ وما هو الأكثر أهمية في الحياة، والتي تتحكم في سلوكهم. ويعرف أيضا بأنه المبادئ التي تساعدك على تحديد ما هو صواب وما هو خطأ وكيفية التصرف في المواقف المختلفة [٦].

وهكذا يُلاحظ ان المنظومة القيمية هي مكون عصبي في الثقافة، بمعنى أنها مصدرا من مصادر تشكل الثقافة، وهي نتاج ثقافي في الوقت نفسه لأنها تتشكل عبر التنشئة الاجتماعية في إطار ثقافي واسع.

أخيرا، يمكننا الآن تقديم تعريف لمفهوم العيب مبني على ما تقدم من مفاهيم الثقافة والمنظومة القيمية، فالعيب من وجهة نظرنا هو ما يرى في المجتمع مذموما محتقرا، أي ما يزدريه المجتمع من قول أو فعل أو معتقد، وأن من يأتي بأي عمل من تلك الأعمال والأقوال والمعتقدات ينظر إليه نظرة ازدراء قد تشتد إلى درجة عدم التقدير ثم الذم والاحتقار ثم العزل والنبذ.

بعد هذا العرض الموجز لمفاهيم الثقافة والقيمة وتعريف مفهوم العيب يبرز التساؤل: أين يقع مفهوم العيب من تلك العناصر الثقافية الأربع (الأخلاق، القانون، العادات والتقاليد، الدين)؟ ما هي العلاقة بين تلك العناصر وبين العيب؟

وفيما يلي عرض موجز لهذه العناصر واحدة بعد الأخرى:

٢. الأخلاق، Ethics

الأخلاق لغةً من الخُلُقِ، والخُلقُ -بضَمِ اللَّامِ وسُكونِها- هو الدِّينُ والطَّبعُ والسَّجيَّةُ (وهو ما خُلِقَ عليه مِنَ الطَّبعِ) والمُروءةُ، وحَقيقةُ الخُلُقِ أنَّه صورةِ الإنسانِ الباطِنةِ، وهي نَفسُه وأوصافُها ومَعانيها المُختَصَّةُ بها بمَنزِلةِ الخَلقِ لصورَتِه الظَّاهرةِ وأوصافِها ومَعانيها[٧]. وجاء في معجم لسان العرب، مادة خُلق بضم اللام وسكونها: هو الدين والطبع والسجية،

وهنا يظهر عنصر الدين كمصدر أول من مصادر الأخلاق، وهو ما سيتم توظيفه في بعض نظريات الاتصال كما سنشير لاحقا[٨].

في الاصطلاح: قدمت تعريفات كثيرة ومتنوعة لمفهوم الأخلاق، منها ما ذكره الإمام الغزالي الذي عبر عن الاتجاه الذي يرى أن الأخلاق يأتي مع الفطرة وتصدر عن السجية، أي أنها موروثة، حيث يقول عن الخلق أنه: "هيئة في النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً سميت خُلقاً حسناً، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خُلقاً سيئاً".[٩]

بينما ثمة اتجاه آخر من التعريفات يرى أن الأخلاق يمكن أن تكون موروثة ومكتسبة في الوقت نفسه، وتولد الموروثة مع الشخص، كمن يولد وخُلقه الكرم أو الشجاعة أو الإيثار، بينما يكتسب الشخص بعض أخلاقه من محيطه من خلال التنشئة والتدريب [١٠]. ويعني ذلك أن خُلق الإنسان يمكن أن يتغير مع تغير الوقت وتغير العوامل المؤثرة فيه، أما مسألة الوراثة فهي مسألة ملتبسة لكنها وجيهة حينما يتعلق الأمر ببعض خصائص الشخصية مثل المزاج العصبي والصفات الذهنية.

ولاحظ عبد الرحمن عزي أن الأدبيات الأوروبية في هذا المجال تفتقد إلى تعريف محدد لمفهوم القيم Values، وأن ليس هناك تحديد دقيق للفواصل القائمة بين القيم بمفهوم المعايير Norms والقيم بمفهوم المعاني "الأخلاقية" Morals والمعتقدات Beliefs والرأي Opinion والاتجاهات Attitudes أو الميول Trends[١١].

وقد ساوى بعض الباحثين العرب بين الأخلاق والقيم[١٢] وقدموا لها تعريفا لا يفرق بينهما، إذ ورد في أحد البحوث العربية الجماعية أن "الأخلاق أو القِيَم، هي منظومة من المبادئ والسلوكيات التي تنظم حياة الأفراد في المجتمع، بحيث ينتج عن الالتزام بها سعادة البشرية". ومثل هذا الأمر يزيد الأمور تعقيدا أو التباسا عند تحديد موقع الأخلاق

أو المنظومة الأخلاقية في شخصية الفرد وسلوكه، ومن ثم تحديد مصدر أخلاقية الفعل أو السلوك.

يؤكد الفيلسوف الألماني كانت Immanuel Kant (١٧٢٤–١٨٠٤) بأن المبدأ الأخلاقي الأعلى هو معيار العقلانية التي أطلق عليها "الضرورة الحتمية" (CI). ووصف Kant الضرورة الحتمية بأنها مبدأ ضروري وموضوعي وغير مشروط يجب أن نتبعه دائمًا على الرغم من أي رغبات أو ميول طبيعية قد نواجهها. فإن جميع المتطلبات الأخلاقية المحددة -وفقا لكانت- لها ما يبررها في هذا المبدأ، ما يعني أن جميع الأعمال غير الأخلاقية غير عقلانية لأنها تنتهك الضرورة الحتمية[١٣].

وتظهر الأدبيات أن النقاش كان عميقا وواسعا في تحديد أخلاقية الأخلاق، أو منطقها، ومن هنا ظهرت المذاهب الأخلاقية المتعددة، التي يعدّ مذهب المنفعة أو الغائية Teleological Theory من أبرزها، على الأقل في النظام الرأسمالي الغربي، وهو يرتكز في تقدير قيمة السلوك أو أخلاقيته بمدى تحقق المنفعة التي قد تحقق السعادة للفرد والجماعة، وهذا المذهب أو النظرية هو عماد الفلسفة الليبرالية[١٤]، وبناء على هذه الفلسفة، تبرز فلسفة "الغاية تبرر الوسيلة". في هذا الاتجاه، يمكن تقييم أخلاقية، أو مقبولية السلوك بناء على المنفعة المتحققة للفرد أو للجماعة، يبنى على ذلك مفهوم العيب، فالعيب من منظور هذا الاتجاه، هو ما يلحق الضرر أو الأذى بالفرد أو الجماعة، أما السلوك الذي لا يلحق الأذى والضرر فهو ليس عيبا، من ذلك مثلا: العلاقات الجنسية التي يمكن أن تمارس في الأماكن العامة، فهي – في نظر أصحاب الفلسفة النفعية- ليست عيبا لأنها تحقق منفعة لممارسيها، وهي بالأحرى ليست حراما، ما دامت لم تلحق الضرر بالآخرين، وهي بذلك تندرج في نطاق المنفعة والحرية الشخصية.

بالمقابل، فإن مذهب المساواة Equity Theory ناقض مذهب المنفعة ونقضه رأسا على عقب حينما جعل من "الإحساس بالواجب" أو ما يسميه كانط "الإرادة الطبيعية أو الإرادة الصحيحة" هو ما يحدد الفروق بين ما هو صحيح وما هو خاطئ، بين المرغوب

وبين المذموم، بين الجميل وبين القبيح. وهو بذلك لا يقيم وزنا للمنفعة او الغاية ولا يجعلها مقياسا، لأن الغاية قد تكون جيدة، لكن الوسيلة أو أسلوب التحقيق لا يكون كذلك، وعليه، وحسب هذه الفلسفة، فإن الغاية لا تبرر الوسيلة[١٥]، وهو خلافا لما آمن وعمل به اتجاه واسع في الغرب في كون الغاية تبرر الوسيلة كما عبر عن ذلك ميكافيلي ١٤٦٩-١٥٢٧ الفيلسوف ورجل الدولة الإيطالي من عصر النهضة، الذي اشتهر بكتابه في علم السياسة بعنوان "الأمير". ووفقا لهذه الفلسفة، فإن العيب هو ما يخالف "الإحساس بالواجب"، او "الإرادة الصحيحة" التي تشابه مفهوم "الفطرة السليمة" في الثقافة الإسلامية. وعليه، فإن ممارسة أي شكل من اشكال الرذيلة، أو الانحراف السلوكي، جنسيا كان أو غير جنسي، سيندرج – حسب هذه الفلسفة- إما في الممنوع قانونيا، أو المذموم اجتماعيا وأخلاقيا أو كليهما.

بالنسبة للمجتمع الفلسطيني وللمجتمعات العربية عموما، فإن مقياس العيب يستند إلى عدة معايير كما أشرنا، واحد منها الدين، ثم المنظومة القيمية، ثم العادات والتقاليد، بالنسبة للأخلاق التي نناقشها في هذا المحور، يبدو تأثيرها مباشرا وقويا، والأخلاق، تقضي بأن ينسجم السلوك مع المبادئ والقواعد الدينية، ثم مع الفطرة السليمة، ثم مع العادات والتقاليد.

بعد هذه المناقشة الموجزة لمفهوم الأخلاق والخُلق، يتبين أن الأخلاق في معظم المناظير تعد مصدرا أوليا أو أساسيا لتحديد سوية السلوك ومقبوليته، فهي تصنف السلوك الإنساني تصنيفا واضحا وحادا، الأخلاقي الحسن، وغير الأخلاقي السيء، لكن الواقع أن عوامل أخرى كان لها تأثيرا مباشرا في تحديد العيب والطيب، المرغوب وغير المرغوب، المحمود والمذموم، المسموح والممنوع، العيب ونقيضه، فالأخلاق جزء من الثقافة، والثقافة أوسع من الأخلاق مثلما سبق الإشارة،

٣. القانون:

يُستحضر القانون في سياق هذا البحث بمفهومه الواسع أو المطلق، فكل قاعدة أو معيار أو مبدأ هو قاعدة، فهو بهذا المعنى قواعد ومبادئ تنظم السلوك. ويُعرف القانون بصيغ متنوعة، منها أنه "مجموعة القواعد التي تنظم حياة الناس في المجتمع، أي تنظم سلوك الأفراد في المجتمع وتوجه نشاطهم، والتي تقترن بجزاء يوُقع جبراً على المخالفين بواسطة السلطة العامة." والقانون حينما يسن يراد به عادة المسائل ذات الأهمية، وتقاس هذه الأهمية بمدى الضرر والفائدة التي تترتب على عدم تطبيق القانون أو عدم تطبيقه. بينما تترك القضايا الأخرى الأقل أهمية أو الأقل خطورة للأعراف والمواثيق والآداب غير الملزمة، التي يتولى المجتمع تنظيمها ووضع الجزاءات لها.

يتبين من التعريف أن ما يميز القانون عن غيره من العناصر الثقافية يتمثل في كون القانون يضع جزاءات وعقوبات متدرجة لما يتم تصنيفه مسموحا وممنوعا، مقبولا وغير مقبول، شرعيا وغير شرعي. من ناحية أخرى، فقد يكون القانون مكتوبا، مثل قانون الدولة أو قوانين بعض المؤسسات، وقد يكون غير مكتوب مثل القانون العشائري وقوانين السلوك العام.

لكن السؤال في هذا الصدد: هل هناك صلة أو تأثير للقانون الرسمي على معايير العيب والطيب في المجتمع؟

الواقع أن الصلة تبدو نسبية وضعيفة، بمعنى أن مخالفة القانون قد ينظر إليها باعتبارها عيبا في بعض المجتمعات أو من قبل بعض الأفراد، وقد لا تعدّ عيبا أو سلوكا مذموما في مجتمعات أو جماعات أخرى، وقد تعتبر سلوكا محمودا وشجاعة مثل قيام بعض الشباب بقيادة مركباتهم بطريقة خطيرة، أو بسرعة جنونية، أو مثل استحواذ الشخص على لقى أثرية من الذهب وغيره، أو مثل قيام بعضهم بسرقة أموال عامة أو حكومية، فمع أن هذه قضايا يجرمها القانون لكن بعضا من أفراد المجتمع ينظر إليها بعين أخرى، خصوصا إذا كانت تربطه بالمخالف علاقة مصلحة أو قُربى وربما لأسباب ثقافية قيمية بحتة. بالمقابل، ثمة سلوكيات لا يدينها القانون، لكن المجتمع أو بعض فئاته يحجمون

عنها بدافع العيب، مثل الملابس القصيرة للرجال، أو لباس الألوان الوردية للذكور، أو تناول الطعام في الشارع للنساء خصوصا، أو الركض في الشارع من للكبار من الرجال والنساء، أو الضحك بصوت مرتفع للبالغين وخصوصا النساء.

إذن، نستنتج أن ليس كل ما يخالف القانون عيبا، وليس كل ما يقره القانون طيبا، وهذه مسائل نسبية تعتمد على ثقافة الأشخاص والبيئات الاجتماعية التي تربوا فيها.

٤. العادات والتقاليد:

مصطلح العادة والعادات مشتق من الاعتياد، وهو السلوك المتكرر الذي تواضع الناس على ممارسته في ظروف وسياقات اجتماعية معينة، وتعرف العادات Habits بأنها "ممارسة شائعة في مكان معين أو مجموعة معينة من الناس، وهي طريقة للتصرف مقبولة من قبل المجتمع العام، أو في مكان أو وقت محدد"(١٦).

وينظر للعادات بكونها السمات والخصائص التي يتميز بها شعب ما عن غيره من الشعوب، وترتبط هذه السمات بالسلوكيات العامة لمجموع الأفراد والعلاقات السائدة، والمنتج الفني والثقافي والتي تميز في مجموعها هذه الجماعة أو هذا المجتمع(١٧). ولتوضيح معنى العادات واختلافه عن غيره من العناصر الثقافية، خصوصا التقاليد، نضرب بعض الأمثلة من المجتمع الفلسطيني منها: عادة صب القهوة العربية للضيوف فور دخولهم المنزل، وعدم تقديمها عند فئات كثيرة من المجتمع – خصوصا البدو- يعتبر عيبا، بينما لا يعدّ عيبا عند الكثيرين من أهل الريف، وهناك عادة شائعة عند أهل الحضر وهي تقديم القهوة التركية للضيوف في آخر قائمة الضيافة لأن تقديم القهوة يعني أن الزيارة أو الضيافة وصلت لمرحلتها الأخيرة، ومن العيب تقديمها في البداية إلا إذا طلب الضيف وألح في ذلك، أو كان صديقا مقربا وعلاقته بالأسرة تجاوزت العادات والتقاليد، لذلك يقال عند تقديمها المبكر "هذه قهوة أهلا وسهلا"، ما يعني أن فنجان القهوة المتأخر هي تعبير عن انتهاء مدة الزيارة "قهوة مع السلامة". من الأمثلة أيضا في المجتمع الفلسطيني أن اعتمار غطاء الرأس (الحطة والشماغ وغيرها وقبل ذلك أي في

العهد العثماني الكفية والطربوش) كانت ضرورة لا يجب التهاون فيها للبالغين، وحتى للصبية بعد سن السادسة في مراحل سابقة، ربما حتى نهاية الانتداب البريطاني، وكان من العيب على الرجال خصوصا الخروج بدون غطاء الرأس هذا، لكن الأمر تغير بوتيرة سريعة جدا، فأصبحت هذه العادة تكاد تنحصر في نسبة ضئيلة من كبار السن.

بينما لا تبتعد التقاليد عن تعريف العادات لكن التقاليد أكثر رسوخا وأطول مدى زمنيا من العادات. وتعرف التقاليد Traditions بأنها "الطريقة التي يتصرف بها الفرد أو يفكر أو يتصرف والتي تم تحديدها وتشكيلها من قبل أفراد من مجتمع معين أو أسرة أو حتى المجتمع ككل لفترة أطول من الزمن. يمكن أن يتعلق التقليد بدين أو ثقافة أو حتى بعائلة معينة. من أمثلة التقاليد ما يجري من احتفالات وتقاليد في الخطبة والأعراس بطرق مختلفة حسب المجتمع، إذ يوجب التقليد مثلا في المجتمع الفلسطيني والمجتمعات العربية عموما عددا من التقاليد مثل: ضرورة حضور عدد من الرجال الوجهاء أو كبار السن الثقاة لطلب يد الفتاة فيما يسمى "الجاهة"، مع العلم أن الشرع لا يوجب ذلك وهو لا يعارضه، ومن ذلك أيضا إطلاق النساء الزغاريت حال اتفاق الطرفان من الرجال على قراءة الفاتحة دلالة على انجاز علاقة الخطوبة، ثم تقليد أن تحضر مجموعة من النساء الكبيرات في السن لاستلام العروس من بيت أهلها في يوم العرس. بالمقابل، فإن قيام والد العروس أو بعض أخوتها أو خالها أو عمها بقبض يدها وهي تخرج من منزلها ثم يتم تسليمها للعريس عند أبواب السيارة قد يعد تقليدا وقد يصنف عادة، وهي هذه الأيام أصبحت غير ملزمة وعدم القيام بها لم يعد عيبا، بينما كان الأمر كذلك في مراحل زمنية سابقة... وهناك تقاليد أيضا في مناسبات الموت، والطهور للأطفال، وتقاليد أيام الأعياد الدينية والقومية وغيرها من المناسبات.

ويبدو أن رياح التغيير عصفت أكثر ما عصفت بعادات وتقاليد الأعراس، إذ بدأ المجتمع يتخلى عن كثير منها لأنها لم تعد مناسبة للعصر، ولم تعد تؤدي وظيفتها الأساسية، ومن ذلك مثلا: إطلاق العيارات النارية في الهواء، إجراء استعراضات سباق

الخيل، أما بعض تلك العادات فقد صنفت في درجة العيب، مثل طلب "البلصة"، وهي مبلغ من المال يطلبه عم العروس وخالها، و"هدِم الأم" أو "هدمِة العم والخال" والهِدم عبارة عن ملابس يُطالب العريس بتقديمها، فهذه أصبحت عيبا في نظر المجتمع وقُطعت تماما.

٥. الدين:

لا يمكن تجاهل التأثير الكبير للمعتقدات الدينية في تحديد سلم العيب والطيب في المجتمعات، بل لعله الأكثر تأثيرا في هذا المجال، إذ يعتبر الدين مصدرا رئيسا من مصادر القيم الاجتماعية علاوة على كونه عقيدة شديدة الفعالية في توجيه حياة الفرد والجماعة، والدين يشتمل على اعتقاد الإنسان حول الخالق والمخلوقات وأمور الغيب والآخرة والعبادات الواجبة والأخرى النافلة أو الطوعية، ويحدد الدين الشرائع والأحكام التي تتعلق بالحرام والحلال، المحمود والمذموم في العلاقات والأفعال والأقوال. وفي مجال العلاقات الاجتماعية، قد تتقاطع أو تلتقي معايير الدين مع المعايير الاجتماعية في تحديد المحمود والمذموم اجتماعيا وأخلاقيا، والفارق بين ما يحدده الدين عن المحددات الاجتماعية أن محددات الدين ثابتة لا تتغير إلا إذا كانت هامشية، لذلك فهي تتمتع بديمومة أطول من الاجتماعي، ومن الصعب تعديلها. لكن الدين ترك للناس هامشا واسعا فيما يرونه مناسبا لأنفسهم فيقرهم على ذلك ما دام لا يناقض الدين وشريعته. وقد أقر الإسلام الكثير مما وجد الناس عليه ليس من القيم فحسب، بل من العادات والتقاليد ومعايير المحمود والمذموم في علاقاتهم وسلوكهم، إذ اقر لهم طرائق اللباس على تنوعه، لكنه اشترط على المسلمين ستر العورات باللباس، وحدد العورات للنساء والرجال. وأقر لهم الطرائق المختلفة في تناول الطعام إذا كان حلالا طيبا، لهذا لا يُعيب الدين – مثلا- تناول الطعام باليد، أو بالملاعق والشوك، ولا يعيب الدين تنوع ألوان اللباس للرجال والنساء، مع أن بعض المجتمعات يعيب- مثلا- لباس الرجال للألوان الوردية الزاهية، كما يعيب بعضهم ظهور صدر الرجل ولو كان فوق السرة، فهذا في نظرهم عيب

مذموم، بينما لا يعيب الرجل في اسكتلندا واليمن لباس قطعة قماش تشبه تنورة النساء، لكنه يعتبر عيبا كبيرا في معظم المجتمعات العربية وحتى مجتمعات أوروبية أخرى.

يبدو تأثير الدين في مسألة العيب والطيب عبر طريقة القدوة، أو "التعلُم بالنموذج" Teaching Model، فالخطاب الديني يُعلي من شأن بعض النماذج الاجتماعية ويحط من بعضها، فلباس الشيوخ مثلا نموذجا يحببه الخطاب الديني، وهذا اللباس يختلف من مجتمع لآخر، لكن القاسم المشترك فيه هو الاحتشام والالتزام باللباس التقليدي. بينما قد يصل بعض الخطاب الديني إلى اعتبار أن التشبه باللباس الأجنبي عيبا لأن فيه تقليدا للكفار أو الأجانب، مع أنه ليس حراما ما دام يستر العورات ولا يشف عن شيء من الجسم.

المحور الثاني: العيب والثقافات الفرعية والعقاب الاجتماعي.

١. تغير عبر الزمن وعبر الثقافات الفرعية:

أشرنا في المناقشات السابقة إلى أن الأفعال والتصرفات والأقوال التي تصنف عيبا في المجتمع تظل متغيرة من مرحلة زمنية إلى أخرى، ومن جماعة إلى أخرى حتى في حدود في المجتمع الواحد في بعض الأحيان، وعليه، فإن مسألة العيب تتمتع بهامش من التباين يعتمد على عاملين، اختلاف الثقافة الفرعية في الجماعة، والمرحلة التاريخية أو السياق التاريخي الاجتماعي.

بالنسبة للثقافة الفرعية، فإن بعض المسائل المعيبة تختلف من جماعة إلى أخرى في الثقافة الواحدة، ويمكن تصنيف المجتمع الفلسطيني إلى ثلاثة أنماط ثقافية كبرى هي: مجتمع الأرياف والفلاحين، وهم الأكثرية، والنمط المدني، وهو الذي يستقطب الأعضاء من الأنماط الأخرى ويمارس تأثيرا في ثقافتهم، ثم المجتمع أو النمط البدوي، وهو الذي يتضاءل سنة بعد أخرى لصالح النمطين الأخريين.

من الأمثلة على اختلاف النظرة إلى فعل العيب بين هذه الأنماط الثلاثة أن المدني مثلا لا يرى عيبا في اختلاط المرأة بالرجال الغرباء لغايات العمل أو التعليم، بينما ظل أهل الريف والبادية يرون ذلك حتى وقت قريب، وما زال بعضهم يتمسك بذلك فيحرم الفتيات من فرص التعليم في الجامعات، أو السفر للخارج. بينما يتيح المجتمع المدني حرية أكبر لسفر الفتاة إلى دول اجنبية لأغراض التعليم والعمل والسياحة أيضا، لكن ضمن محددات بالنسبة للسياحة خصوصا كأن تكون مع بعض أسرتها أو ضمن عصبة من النساء كما يوجب الشرع.

كان المجتمع التقليدي الفلسطيني إلى ما قبل خمسين عاما، يعيب على الرجل (في مجتمعات الريف والبدو) القيام بأي خدمة للأطفال من تلك التي تقوم بها المرأة، مثل تنظيفهم وتغسيلهم وتلبيسهم وحملهم وحتى تقبيلهم، وظلت تلك من المظاهر التي لا تتفق مع الرجولة من وجهة نظر فئات واسعة من المجتمع، ومثل ذلك ظل المجتمع يعيب على المرأة الغناء وممارسة الفن عموما إلا في مجتمعات النساء، غير أن هذا التحديد أو التعييب تضاءل وتراجع إلى أدنى حدوده منذ النصف الثاني للقرن العشرين الماضي، ومع ذلك ما زال المجتمع يحول دون بروز مطربات ومغنيات مثل باقي المجتمعات العربية الأخرى، وبقي المجتمع البدوي أكثر تمسكا بحدود العيب بالنسبة للنساء إلى وقت قريب. وعرف عن المجتمع البدوي الإعابة أو التعييب اتجاه العمل اليدوي، لذلك لم تنشأ في هذه المجتمعات مراكز خدمية مهنية أو حرفية إلا في أوقات متأخرة، وكانت الثقافة التقليدية البدوية تزدري المهنيين وأصحاب الحرف لصالح تربية الإبل والماشية والوظيفة الرسمية، إلى أن تفككت هذه الثقافة مع التقدم الحضاري والحاجة لمجاراة العصر ومتطلباته الاقتصادية والثقافية، ومع ذلك ما زالت رواسب هذه النظرة قائمة حتى يومنا هذا خصوصا ما تعلق بممارسة الأعمال اليدوية والمهنية ما يزيد في أزمة البطالة في بعض المجتمعات العربية.

٢. العقاب الاجتماعي ومستوياته:

يقصد بالعقاب الاجتماعي، أن المجتمع يقوم بتنفيذ عقوبات اجتماعية على الأفراد والجماعات التي تتحدى بعض عاداته وتقاليده وأعرافه، وهي عقوبات تختلف عن العقوبات الدينية أو تلك التي يمثلها القانون الرسمي، والسؤال ما هي التصرفات والأفعال والأقوال التي تستوجب العقاب؟ وما هي نوعية ودرجات هذا العقاب؟

يمكن الإشارة في المجتمع الفلسطيني إلى أهم هذه العقوبات ضد الأفراد الذين يتحدون العادات والقيم أو ينتهكون قوانين العيب تحديدا وكما يلي:

١. عقوبة العزل الاجتماعي او النبذ، وهي أقسى مستويات العقوبة وأقصاها؛ بحيث يمتنع أفراد الجماعة عن التواصل مع المتهم أو المدان بأحد الأفعال المصنفة في سلم العيب الشديد، وقد يشمل هذا العزل عدم زيارة المتهم في بيته، وعدم التفاعل معه بالسلام والكلام، وعدم المشاركة في مناسباته أفراحا وأتراحا، وعدم دعوته إلى المناسبات. ويأتي في رأس قائمة هذه الأفعال الخيانة الوطنية، إذ يرتقي العيب ليصبح عارا خالدا على الجاني وأسرته وأقربائه لذلك فإن دم الخائن مهدور في عرف أغلبية افراد المجتمع، ومن الأفعال التي تستوجب العقاب الأقسى الإصرار على التلفظ بالكلام الفاحش في المجالس، والتباهي بالفاحشة والمنكرات سواء للرجال أو النساء، ومن ذلك أيضا ممارسة التسول، إذ لا يقبل المجتمع الفلسطيني هذا السلوك حتى لو كان الشخص في فاقة، لأن عليه انتظار الصدقات لا البحث عنها إذا كان في حاجة فعلية.
٢. عقوبة الاعتذار العلني، وهي تُطلب عادة ممن قام بعيب من النوع المتوسط بحق أخرين، كأن يقوم بشتم أحدهم في حين ثورة غضب أو سوء فهم، أو أن يأخذ من أملاكه شيئا دون إذن بقصد الاستخدام وليس السرقة (لأن مسألة السرقة لها عقوبات أخرى)، أو أن يلقي أحدهم بنفايات في حرم منزل آخر، أو أن يقوم بالتنصت أو التلصص على خصوصيات الآخرين العادية، أما إذا تعدت أفعال

التنصت والتلصص إلى الحرمات والعورات، فإن ذلك قد ينتقل بالعقاب إلى حد أعلى، أو إلى الدعاوى القانونية والعشائرية.

٣. الاستنكار والتعزير والجزر، وهو عقاب من النوع المتوسط بحيث يُكتفى بتوجيه الاستنكار وربما الشتيمة إلى المُذنب بالعيب، رغم أن التعزير الشرعي قد يتضمن العقوبة الجسدية الطفيفة، فإن التعزير الاجتماعي لا يصل إلى حدود العزل أو العقاب البدني، لأن ما قام به الشخص من عيب لا يستوجب ذلك في نظر المجتمع، والفاعل المذنب هو غالبا من ذوي القربى الذين يصعب نبذهم وعزلهم اجتماعيا، ومن ذلك عدم التزام آداب تناول الطعام خصوصا في حضرة الجماعة، ومن ذلك أيضا عدم إبداء الاحترام لكبار السن، والأطفال، والضيوف والجيران، فذلك مما يستدعي الاستنكار والجزر.

٤. عقوبة اللوم والتوجيه والنصيحة، وتستخدم في حال كان العيب من المستوى الخفيف، ومما ينتهي في اللحظة أو الساعة، ومن أمثلة ذلك، أن يخرج الشاب إلى الشارع بالسروال القصير (الشورت) في بعض الثقافات الفرعية، أو أن يرتفع صوت الفتاة بالضحك في الشارع أو في البيت أمام الضيوف والغرباء، ومن ذلك أيضا طلب الحصول على شيء من الآخرين طمعا أو استغلالا، كأن يطالب الشخص بزيادة حصته في الطعام في بيت المضيف، أو أن لا يحترم آداب الطعام كأن يحمل الطعام بيديه الاثنتين، أو يظهر شراهة في الأكل، أو أن يمتنع عن طعام قدم له إلا بعذر مقبول ومقنع، وفي هذه الحالات غالبا ما يكتفى بتوجيه اللوم والعتب والنصيحة.

٥. أفعال تُصنف عيبا لكن لا تستحق العقوبة، فهناك الكثير منها مما يسكت عنه المجتمع لكنه يحتقرها ولا يقرها، ومن ذلك مثلا رمي أعقاب السجائر والنفايات عبر نوافذ المركبات، فرغم أن ذلك مخالف للقانون، وينظر إليه بسلبية من قبل المجتمع، ومن ذلك أيضا التبول أو قضاء الحاجة في أماكن عامة مكشوفة، لكن

مع ذلك نادرا ما يوجه اللوم أو العتب وجها لوجه إلى من يقوم بهذا الفعل، رغم أن المجتمع لا يقر هذه الأفعال لكنه ينتقد هذه الأفعال بعموميتها.

الخلاصة:

يعرف العيب إجرائيا في هذه الدراسة بأنه كل قول أو فعل يراه المجتمع سيئا ومعيبا في مرحلة زمنية محددة، والعيب أيضا هو ما يخالف أخلاق المجتمع وقيمه وتقاليده المتوارثة، ومعايير التعييب متغيرة عبر المجتمعات والفئات الاجتماعية وعبر الزمن. بالنسبة للمجتمع الفلسطيني وللمجتمعات العربية عموما، فإن مقياس العيب يستند إلى عدة معايير تنتظم جميعها في الإطار الثقافي، تبدأ بالمنظومة القيمية والأخلاق، ثم العادات والتقاليد المتوارثة ثم التأثير الديني، ويبدو تأثير الأخلاق مباشرا وقويا، وتوجب الأخلاق بأن ينسجم السلوك مع المبادئ والقواعد الدينية، ثم مع الفطرة السليمة، ثم مع العادات والتقاليد.

ويتضح أن بعض ما كان عيبا في نظر المجتمع خلال مرحلة زمنية ما لم يعد كذلك في مرحلة لاحقة، والعكس صحيح، وهذا يعني أن مفهوم العيب يبقى في تغير وتبدل، لكن ثمة عناصر ثقافية وسلوكية في سلم العيب والطيب تكتسب مناعة عابرة للأزمان والفئات، فبعض ما كان عيبا في قديم الزمان ظل كذلك حتى يومنا هذا، ومن ذلك عدم إجلال الوالدين واحترام الصغار للكبار، وعدم إكرام الضيف، واستغابة الناس، والتنكر لصلات القربى والجيرة، وعدم الوفاء لتجربة العيش والملح المشتركة، ومن المتغيرات ما طرأ على أنماط اللباس، فبعض ما كان عيبا لم يعد كذلك، مثل خروج الرجل بدون غطاء الرأس، أو لباس الألوان الزاهية للرجل، أو تناول المرأة الطعام في الأماكن العامة.

المراجع

[١] - كوش، دنس، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة منير السعيداني، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٧، ص ١١.

[٢] - Taylor's Definition of Culture, Sociology - Scribed, Jul 12, 2014.

https://ar.scribd.com/document/233601059/Taylor-s-Definition-of-Culture

[٣] - كوش، دنيس، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، مرجع سابق، ص ١١٩.

[٤] - أبو الحمام (المطور)، عزام، الفولكلور – التراث الشعبي: الموضوعات والأساليب والمناهج، عمان، دار أسامة للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧.

[٥] - عزي، عبد الرحمن، منهجية الحتمية القيمية في الإعلام، تونس، الدار المتوسطة للنشر، ص ١٠٣-١٠٤.

[٦]- Cambridge Dictionary, Values, 2024,

https://dictionary.cambridge.org/dictionary/english/values#google_vignette

[٧] - موسوعة الأخلاق والسلوك، معنى الأخلاقِ لُغةً واصطِلاحًا، ٢٥-٨-٢٠٢٤، https://dorar.net/alakhlaq/2

[٨] - لسان العرب، ابن منظور، (١٠:٨٦:٧٨)، بيروت، دار صادر، ٢٠٢١.

[٩] - الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين، ج٣، دار المعرفة، بيروت، ص٥٣. على الرابط:

https://www.alukah.net/web/muslim/11405/88907/#_ftn1

(١٠) ـ المعاني، أحمد وآخرون، قضايا إدارية معاصرة، عمان، دار وائل للنشر والتوزيع، ٢٠١١، ص ٣٦٤.

(١١) ـ عزي، عبد الرحمن، منهجية الحتمية القيمية في الإعلام، تونس، الدار المتوسطة للنشر، ص ٧٩.

(١٢) ـ عبد المجيد، السيد وآخرون، الأخلاق: مفهوم ورؤية، المجلة العربية للقياس والتقويم، المجلد ٢، العدد ٤ ـ الرقم المسلسل للعدد ٢، يوليو ٢٠٢١، ص ص ٢٤-٤٧، الرابط:

https://ajme.journals.ekb.eg/article_216086.html

(١٣) - Johnson, Robert and Adam Cureton (2018). Kant's moral philosophy. The Stanford Encyclopedia of Philosophy. Edward N. Zalta, ed.

(١٤) ـ صالح، سليمان، أخلاقيات الإعلام، ط٢، الكويت، مكتبة الفلاح، ٢٠٠٣، ص ٦٧.

(١٥) ـ جرادات، ناصر، وأبو الحمام، عزام، المسؤولية الأخلاقية والاجتماعية للمنظمات، عمان، دار إثراء للنشر والتوزيع، ٢٠٢٣، ص ٨٦.

(١٦) ـ صحيفة الثورة (سوريا)، الفرق بين العادات والتقاليد، وتأثيرها بثقافة الشعوب، ٢٦ أكتوبر , ٢٠٢٣، تم الاطلاع بتاريخ (٢٩-٨-٢٠٢٤، https://thawra.sy/?p=504996

(١٧) ـ حجاب، محمد منير، الموسوعة الإعلامية، القاهرة، دار الفجر للنشر والتوزيع، ٢٠٠٣م، ص٢٦٠.